مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية
المجلد14/العدد: 01 (2024)، ص 583-601

# صورعن معاناة وأحزان الطفل في المغرب الأوسط

# زمن الحروب والحصارات ما بين القرنين (6-9 ه/12-15م)

**Pictures of the suffering and sorrows of children in the Central Maghreb**

**during the time of wars and siege between the two centuries (6-9 AH / 12-15 AD).**

Nouicer Ghaliya [1], Sidi Moussa Mohammed Cherif

نويصر غالية [*] ، سيدي موسى محمد الشريف

[1] طالبة دكتوراه جامعة لونيسي علي -البليدة 2/ الجزائر، مخبر الدراسات المتوسطية

عبر العصور eg.nouicer@univ-blida2.dz

[2] بروفيسور جامعة لونيسي علي -البليدة 2/ الجزائر Med.moussa062@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2023/09/15 تاريخ القبول: 2024/04/25 تاريخ النشر: 2024/06/27

**ملخص:**

تروم هذه الورقة البحثية للغوص في حجم المعاناة والأحزان التي خلفتها الحروب والحصارات التي شهدها المغرب الأوسط في الفترة مابين القرنين السادس والتاسع هجري، خاصة زمن الحصار الطويل الذي يعتبر الأشد وطأة وفتكا بالساكنة لاسيما على الأطفال، الذين أجبرتهم النتائج الكارثية لهذه الإزم والتي مست جميع الأصعدة على تذوق شتى أنواع العذاب وعيش معاناة حقيقية دفعت بهم للدخول في دوامة من الحزن والضغوطات النفسية لكونهم الحلقة الأضعف في المجتمع، حيث كانت تداعياتها وخيمة عليهم إذ لم يأمنوا من أزمتي الفقر والجوع التي دفعت بآبائهم في سبيل تأمين الغذاء لهم لانتهاج سلوكات غذائية هجينة وصلت لحد الخروج عن حدود الإنسانية وانتهاج سلوكات حيوانية كإجراء وقائي ضمن إطار الصراع من أجل البقاء، وعلى الرغم من أن هذه الفئة لم تكن مستهدفة ضمن مخططات الحرب غير أنها لم تسلم من القتل والسبي ووقفت على مشاهد دموية يندي لها الجبين خاصة التي مست أحد أفراد الأسرة و تنوع ضحاياها بين مشرد ويتيم أومسكين ومعاق، كما أنهم وفي خضم هذه الظروف كانوا مجبرين على ترك البيئة والمحيط الذي عاشوا وترعرعوا فيه ليجدوا أنفسهم أمام حتمية الفرار والهجرة بعيدا عن الحروب وصداها وهذا ما أثر سلبا على نفسيتهم، زد على ذلك فنتائج الحروب عليهم غالبا لا

[*] **المؤلف المرسل:** نويصر غالية، **الإيميل:** eg.nouicer@univ-blida2.dz

تكن آنية بل تمتد لردح من الزمن لتخلف جيل مهزوم يعاني من اضطرابات نفسية وهذا ما قد يؤثر سلبا في بناء شخصيتهم المستقبلية.

**كلمات مفتاحية:** الأطفال.،المغرب. الأوسط.، الأحزان.، الحروب.، الحصارات.، المعاناة.

**Abstract:**

This research aims to delve into the extent of the suffering and sorrow caused by the wars and sieges that the Central Maghreb witnessed in the period between the sixth and ninth centuries AH, especially the time of the long siege, which is considered the most fatal to the population, especially children, who were forced by the catastrophic results to taste real suffering that led them to live in sadness and pressure. Psychologically, because they are the weakest group in society, and its repercussions were dire for them, as they were not safe from the crises of poverty and hunger that pushed their parents to adopt hybrid food behaviors that amounted to going beyond the limits of humanity and adopting animal behaviors as a preventive measure within the framework of the struggle for survival. Although this group was not targeted within the war plans, it was not spared from killing and captivity, and witnessed bloody scenes, especially if it affected a family member, as its victims varied between the homeless, the orphan, the poor, and the disabled. Also, under these circumstances, children were forced to leave their homes. The environment and surroundings in which they lived, finding themselves faced with the inevitability of fleeing and migrating away from wars and their echoes. Moreover, the consequences of wars on them were not immediate, but extended over a period of time, leaving a defeated generation suffering from psychological disorders, and this may negatively affect the building of their future personality.

**Keywords**: Children, Central. Maghreb, sorrows, wars, sieges, suffering.

**Résumé** :

Cette recherche vise à approfondir les souffrances et les chagrins causés par les guerres et les sièges dont le Maghreb central a été témoin entre le VIe et le IXe siècle de l'Hégire, en particulier l'époque du long siège, considéré comme le plus meurtrier pour la population. en particulier les enfants, qui ont été contraints par les résultats catastrophiques à vivre dans la tristesse et la pression psychologique parce qu'ils constituent le groupe le plus

faible de la société. Les répercussions ont été dures sur eux, car ils n'étaient pas à l'abri de la pauvreté et de la faim, ce qui a poussé leurs parents à adopter des hybrides. des comportements alimentaires qui dépassaient les limites de l'humanité et adoptaient des comportements animaux comme mesure préventive pour survivre. Ce groupe n'a pas été ciblé pendant la guerre, mais il n'a pas été épargné par les meurtres et la captivité et a été témoin de scènes sanglantes, notamment celles qui ont touché un membre de la famille, où ses victimes variaient entre les sans-abri, les orphelins, les pauvres et les handicapés. Ils ont également été contraints de quitter les environs dans lesquels ils vivaient, se retrouvant confrontés à l'inévitabilité de fuir et d'émigrer pour échapper aux guerres. De plus, les conséquences des guerres contre eux n'ont pas été immédiates, mais se sont étendues sur une période de temps, laissant une génération vaincue qui souffre de troubles psychologiques, ce qui peut nuire à la construction de sa future personnalité.

**Mots clés** : .Enfants, Maghreb. central, les chagrins, les guerres, les sièges, la souffrance.

- **مقدمة:**

الخوض في المواضيع المتعلقة بالطفل من الصعوبة بمكان وهذا راجع لافتقارنا إلى نصوص خبرية أو مصدرية المتعلقة بهذه الفئة هذا من جهة، ومن جهة أخرى العقم الذي أصاب المتون التاريخية التي ظلت حبيسة التاريخ السياسي والعسكري وهمشت تاريخ شرائح عديدة من المجتمع في ظل التاريخ المسكوت عنه، ويضاف لها عائق آخر وهو صعوبة التعامل مع هذه الفئة بحكم صغر سنهم وبالنظر إلى طبيعتهم الفيزيولوجية لكونهم غير واعين لما يجري من حولهم فهم لايحسنون التعبير عما يخالجهم و جل معاناتهم يترجمها الصمت أو الدموع التي لا تكاد تفارق مقلتيهم كحد أقصى، وللإحاطة بهذا الموضوع ارتأينا لم الشتات المتناثر بين ثنايا المصادر التاريخية مع الاستعانة بالمصنفات النوازلية وكتب الرحلات من أجل الوقوف على الواقع المرير الذي عايشه الأطفال وحجم المعاناة التي تكبدوها زمن الحروب والحصارات التي ما فتأت تعصف بالمغرب الأوسط بين الفينة والأخرى، من أجل رسم صورة ولو مقتضبة نستشف من خلالها الحالة النفسية التي عاش بها الأطفال آنذاك وما تمخض عنها من آلام وأضرار معنوية، كما يمكننا أن نلامس حجم الأعباء التي أثقلت كاهلهم على الرغم من أنهم لم يكونوا مستهدفين ضمن مخططات الحرب، غير أنهم لم يسلموا من تداعياتها التي أحدثت تغيرات جذرية في حياتهم وسلوكهم وكان لها تأثير سلبي على مستقبلهم، ومن هذا المنطلق نطرح الإشكالية التالية: **كيف كان و اقع الطفل في المغرب الأوسط زمن الحروب والحصارات؟ وفيما تجسد حجم المعاناة الحقيقة التي تكبدها الطفل وجعلته يدخل في دوامة من الأحزان؟**

## 1. و اقع المغرب الأوسط إبان الحروب والحصارات:

شهد المغرب الأوسط في الفترة موضوع الدراسة وضعاً سياسياً مضطرباً سمته البارزة الحروب والصراعات الداخلية والخارجية على حد سواء، تخللتها في الغالب سلسلة من الحصارات خاصة ضمن الصراعات التي خاضها بني عبد الواد ضد المرينيين، والتي اعتبرت الأشد وطأة وفتكا بالساكنة ولم يعرف تاريخ البشرية لها مثيل، عايشت خلالها الساكنة واقعا اجتماعيا مريرا وعصيبا نظرا لما خلفته من نتائج كارثية شملت كل مناحي الحياة وكان المجتمع فيها هو كبش الفداء خاصة طبقة العوام التي مثلت قاعدة هرمه.

فمن أبرز الصرعات التي شهدتها الجبهة الشرقية تعرض بجاية للغزو من طرف بني غانية حيث اختصر ابن عذارى ما حصل فيها بعد حدوث الفتنة بكلمات تروي تفاصيل ما نتج عنها من دمار أتى على الأخضر واليابس حيث قال:" وخف قطينها وعمارها، وانتهبت زروعها وغلاتها، وقلت خيراتها وعدمت مرافقها وأقواتها، وألم بالرعية الحيف، وتقسمهم الجلاء والسيف، اعتصم من نجا منهم بقنن الجبال والأوعار...فأقفرت بجاية بسائطها وقلت مادتها وغلت أسعارها،وأعذرت الجباية، وجاوز تقتيرها النهاية،... والمجاعة تشتد والوباء يزيد حتى عم الموتان، وبطرت معيشتها الرخم والعقبان وانحصر المسلوبون والمغنومون الى البلد في أمم لا يحصى عديدهم ولا ينادي من الإقتار وليدهم، وعجز أهل البلد عن تكفين الموتى وعن مواساة الأحياء، فكانوا يصبحون وفي سكك المدينة زمرا أمواتا ذكورا وإناثا"(ابن عذارى، 1985، ص 181)، ثم تلتها سلسلة حروب طاحنة بين الزيانيين والحفصيين الذين كانت لهم يد لما حل بالساكنة من قتل وتشريد وما تعرضت له ممتلكاتهم من تخريب وتدمير حتى المحاصيل هي الأخرى لم تسلم من الإتلاف(فيلالي، 2001، ص 168)، وعلى سبيل المثال رواية ابن خلدون لما فعلته إحدى حملات السلطان أبي زكريا الحفصي حيث" انسلت الجيوش إلى البلد من كل حدب ، فاقتحموا وعاثوا فيه بقتل النساء والصبيان واكتساح الأموال".(ابن خلدون، 2000، ص 108)

أما الجبهة الغربية فلم تعرف هي الأخرى للاستقرار طريق نتيجة الصراع التقليدي والدائم بين الزيانيين والمرينيين اللذان نشبت بينهما حروب عدة تفاوتت نتائجها بين الانتصارات والهزائم دارت رحاها في الغالب على أراضي المغرب الأوسط، وأتت على الأخضر واليابس وكانت الأشد عنفاً وفتكاً بالساكنة نظرا لما خلفته من دمار على جل الأصعدة.

وقد أفاضت المتون التاريخية في الحديث عنها وعن أهوالها وأعطت تصورا عما كابدته الساكنة من مشاق وترجمت واقع المحن التي عاركتها في خضم تلك الحروب والحصارات، وما يحوز في النفس أنه

رغم فضاعتها ونتائجها الكارثية غير أن ما يكون بعد الهزيمة هو الأشد، حيث كان دأب المرينيين بعد كل هزيمة يمنون بها على الزيانيين السعي في الأرض فساد ولا يسلم من شرهم لا صغير ولا كبير ولا يتركون ورائهم عمران مشيدة ولا بيوت مهيأة ولا زروع وما عجزوا عن أخذه أحرقوه(ابن الوزان، 1983، ص28)، وهذا ما يؤكده ابن خلدون بقوله في عدة مواضع"وبقي يرتحل في أحوازها ويأكل زروعها ويسبي ويغنم أموالها ويخرب قراها"(ابن أبي زرع، 1972، ص 379)، و"مر في طريقه بتافريست فانتسفها وعاث في نواحيها"(ابن خلدون، 2000، ص 112)، أما ابن أبي زرع فقد وصف ماحدث بعد هزيمة السلطان يغمراسن على يد السلطان يعقوب بن عبدالحق سنة670هـ بقوله: " وأوغل في بلاد يغمراسن يخربها ويسبي أموالها حتى وصل إلى تلمسان ...واشتد الحصار...وضيقت قبائل تجين بمدينة تلمسان لأخذ ثأرهم من يغمراسن بن زيان فقطعوا الثمار والجنات وخربوا الرباع وأفسدوا الزروع وحرقوا القرى والضياع، حتى لم يدعوا بتلك النواحي قوت يوم ".(ابن أبي زرع، 1972، ص 310-311)

ولم يتوقف أذى المرينيين عند هذا الحد إذ اشتهر سلاطينهم بحبهم الشديد للتنكيل بالجثث، خاصة إذا تعلق الأمر بجثث سلاطين بني زيان حيث تفننوا في التمثيل بها على أعين ومرأى الناس من أجل ترهيبهم(صدوق و بن طالب، 2011-2012، ص 15)، والأمثلة كثيرة نذكر منها روية ابن الأحمر عما فعله أحد سلاطين بني مرين بعد هزيمته للسلطان أبو زيان الذي" قتل وسيق رأسه إلى الحضرة فطيف به في فاس على رمح"(ابن الأحمر، 1962، ص 60)، ونفس المصير لقيه السلطان أبو تاشفين وأبنائه ووزرائه الذين قطعت رؤوسهم ووضعت على الرماح وطيف بها على مرأى الناس(الناصري، 1954، ص 125)(ابن الأحمر، 1962، ص 72)، وقد أورد عدة مؤرخين وصفا مشابها لهذا المشهد وما أعقبه من سلب ونهب وانتهاك للحرمات حيث قال:" ثم نزع عنه إلى أبي تاشفين ثم استمر عنده على هذا اليوم فشهده في جماعة من بنيه وبني أخيه وكانوا أحلاس حرب ...فمانعوا دون القصر واستماتوا عليه إلى أن استحلموا ورفعت رؤوسهم على عصا الرماح فطيف بهم وغصت سكك البلد من داخلها وخارجها بالعساكر وكضت أبوابها بالزحام حتى قد كب الناس على أذقانهم، وتواقعوا على مساربهم،فوطئوا بالحوافر وتراكمت أشلائهم ما بين البابين حتى ضاق المسلك ما بين السقف ورحبة الباب وانطلقت الأيدي على المنازل نهبا واكتساحا... وقبض عليه (يعني أبو تاشفين) بعض الفرسان فساقه إلى السلطان فلقيه ابنه الأمير عبد الرحمن فأمر به فقتل في الحين واجتز رأسه"(ابن الأحمر، 1962، ص 52) وكان غرضهم من كل ذلك إثارة الرعب والخوف بين الناس.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تجاوز أذاهم ليبلغ عائلات السلاطين وحرماتهم من نساء وأطفال خاصة بعد الهزائم التي كانت تهطل كالمطر على الزيانيين، وخير مثال على ذلك رواية ابن الأحمر لما فعله السلطان المريني أبو عنان بقوم الأمير أبو عثمان بعد أن ذبحه فجيء بهم كالأسارى الى فاس وسجنوا

ثم أطلق سراحهم وصاروا ينقلون الرمل على الحمير يبتاعونه يتعيشون به، وأكثر نسائهم يتعيشن بغسل الثياب في دور الحضر بفاس"(ابن الأحمر، 1962، ص 52-54)، ومصير مشابه لقيته عائلة السلطان يغمراسن بعد هزيمته" وانتهبت الناس محلته وأمواله وأثقاله وعياله"(ابن أبي زرع، 1972، ص310-311)، أما مصير عائلة السلطان أبو زيان بعد هزيمته فيسرد ابن الأحمر أنه" ترك محلته وجميع نسائه فانتهبها آل مرين، وبعثوا بعياله وماله لمولانا السلطان أبى سعيد"(ابن الأحمر، 1962، ص 60)، كل هذه القرائن تقف دليلا على أن النساء و الأطفال خاصة مثلوا الحلقة الأضعف في المجتمع سواء عند علية القوم أو لدى عامة الناس، ولا يساورنا أدنى شك في أن أطفال العائلات الحاكمة لم يكونوا بمنأى عن تداعيات الحروب والحصارات ومسهم من السوء ما قد يندي له الجبين، ويمكن القول بأن الأذى الذي تعرضوا له قد يكون خلف لديهم صدمات نفسية تفوق الصدمات التي تعرض لها أطفال العامة لكونهم اعتادوا على رفاهية ورغد العيش هذا إن سلموا من القتل والسبي.

ورغم ما لحق بأفراد الأسر الحاكمة من أذى غير أنهم كانوا في مواقف أخرى واعين لما قد يصيبهم في حالات الهزائم، خاصة الحريم اللواتي كن يفضلن أن يمتن بسيوف جنودهم قبل أن يقعن في أيدي عدوهن وهن لا يدرين ما سيكون مصيرهن، وخير مثال على ذلك ما حصل مع أسرة أبو زيان بعد ما نزل بهم من ضيق في العيش جراء الحصار الطويل، حيث أطلعنا ابن خلدون عن حالتهم والمصير المحتم الذي كان ينتظرهم إما الموت بالجوع أو بالسيف حيث :"جلس السلطان أبو زيان صبيحة يوم الفرج ...وإذا بالخادم...خرجت من القصر إليهم، فوقفت وحيتهم تحيتها وقالت: تقول لكم حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم ما لنا وللبقاء، وقد أحيط بكم وأسف عدوكم لاتهامكم، ولم يبق إلا بكيئة لمصارعكم، فأريحونا من معرة السبي، وأريحوا فينا أنفسكم وقربوا إلى مهالكنا فالحياة في الذل عذاب والوجود بعدكم عدم، فالتفت أبو حمو إلى أخيه وكان من الشفقة بمكان وقال: قد صدقتك الخبر فما تنظر بهن؟ فقال: يا موسى أرجئني ثلاثا لعل الله يجعل بعد عسر يسرا، ولا تشاوروني بعدها فيهن، بل سرح اليهود والنصارى إلى قتلهن وتعال إلي نخرج مع قومنا إلى عدونا فنستميت...فغضب أبو حمو وأنكر الأرجاء في ذلك، وقال: إنما نحن والله نتربص المعرة بهن وبأنفسنا، وقام عنه مغضبا وجهش السلطان أبو زيان بالبكاء".(ابن خلدون، 2000، ص 129)(الناصري، 1954، ص 86-87)

وما لا ريب فيه أن كثرة الحصارات المصاحبة لهذه الحروب زادت الأمور تعقيدا وشدة فقد كان نصيب الدولة الزيانية حصة الأسد منها، حيث تعرضت تلمسان لعدة حصارات(العمري، 2010، ص 103-104)(الناصري، 1954، صفحة 33)لكن يبقى الحصار الطويل الذي دام ثمانية سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيام(أبي زكريا يحي، 1903، ص 125)الذي فرضه أبي يعقوب يوسف المريني الأشد وطأة وفتكا على المجتمع والإنسان وحتى الكائنات الحية في تلمسان(عباس و بالأعرج، 2018، ص 87-102)، ولا مراء من

قول أن المجاعة التي أعقبته كانت الأفظع حيث لم يسرد التاريخ لها مثيل، حيث لحق بأهل تلمسان بلاء عظيم "نالهم فيها من الجهد والجوع ما لم ينل أمة من الأمم" و"استهلك الناس أموالهم وموجودهم وضاقت أحوالهم"(ابن خلدون، 2000، ص 128-129)، ووجد الناس أنفسهم أمام خيارين إما الموت جوعا أو بالسيف أو الفرار(التنسي، 2011، ص 168)، ولم ينتهي هذا الحصار إلا بموت السلطان يوسف بن يعقوب "واذهب الله عن آل زيان وقومهم وساكني مدينتهم كأنما نشروا من الأجداث".(الناصري، 1954، ص 86)

كما تجدر الإشارة إلى أن سكان الجهة الغربية عانوا كذلك من تحرش الإسبان بالسواحل مثلما حصل في وهران وكانوا يعيشون في خوف دائم من هجومهم(ابن الوزان، 1983، ص 14-15)، حيث أطلعنا ابن الوزان عما حصل لهم في إحدى الغارات حين :"تمكنوا في يوم واحد من الاستيلاء على المدينة لأن السكان خرجوا يقاتلون بغير نظام وتركوا المدينة خالية، فعلم الإسبان بذاك فأرسلوا قسما من جنودهم إلى الجانب الأخر من وهران، فلم يجدوا من خصومهم غير النساء وقد صعدن على الأسوار، فدخلوا المدينة بسهولة...ثم غادروها فجأة وركبوا ظهور عدوهم"(ابن الوزان، 1983، ص 31)، ورغم أن ابن الوزان لم يسرد لنا ما كان مصير النساء وطبعا معهم الأطفال لكن بوسعنا أن نتخيل صنيع الإسبان بهم فإن أفلتوا من القتل فلن يسلموا من السبي وأخف الأضرار الرعب والخوف الذي تملكهم منهم.

كما لا ننسى الفتن والحروب الداخلية التي ما فتأت تدق نعش الدولة الزيانية وساهمت بشكل كبير في اضطراب الأحوال السياسية التي صاحبها انتشار كبير لظاهرتي اللصوصية وقطع الطريق بزعامة القبائل العربية التي لم تترفع عن اقتراف الجرائم وأتت على الأخضر واليابس، وخير دليل يقف على كثرتها وما لحق الناس من جرائها تطرق عدة نوازل ضمن موضوعاتها للتجاوزات والعبث الناتج عن سطوة الأعراب وما صاحب غاراتهم من تخريب للعمران وسلب للقوافل التجارية والمسافرين والتعدي على السكان وسفك دمائهم ونهب أموالهم وسبي نسائهم(الونشريسي، 1981، ص 435-436)،وهذا ما أكده ابن خلدون بقوله:"فتشجعت على شن الغارات والأجلاب بخيلها ورحلها على الحواضر والبوادي ... فكانت أجلاف العربان من بني سليم وبقايا بني هلال يعيثون في الأرض فسادا ويأخذون الإتاوات من الناس ظلما وعدوانا"(ابن خلدون، 2000، ص 80-82)، ومن باب الاحتراز والمحافظة على النفس والأولاد وصيانة للحرمات عمدت الساكنة لموادعتهم ومداراتهم بالأموال والأعطية اتقاء لشرهم(مزدور، 2008-2009، ص 100)واقتداء بولاة أمورهم سواء كانوا من المرينيين أو الزيانيين الذين هم بدورهم لجئوا لهذا الفعل بعد أن عجزوا عن وضع حدا لهم(ابن الوزان، 1983، ص 63).

### 2. معيشة الطفل في ظل الفقروأزمة الجوع:

أسفرت الأزمات التي عاشها السكان نتيجة الحروب والحصارات عن حدوث خلل داخل مجتمع المغرب الأوسط، بسبب نتائجها الكارثية التي لم تسلم من ويلاتها كل فئات المجتمع بكبيرها وصغيرها غنيها وفقيرها، وخير دليل يقف على ذلك أن الأسر الحاكمة أصابها ضيق العيش وذاقت نصيبا غير منقوص من ويلات الحصار الطويل و تداعيات الحروب وهذا ما يؤكده ابن خلدون عند وصفه للحالة التي وصلت إليها أسرة السلطان أبو زيان والموت المحتم الذي كان ينتظرهم إما جوعاً أو بالسيف في آخر يوم من الحصار حيث قال:"جلس السلطان أبو زيان صبيحة يوم الفرج وهو يوم الأربعاء في خلوة زوايا قصره،واستدعى ابن حجاف خازن الزرع فسأله كم بقي من الأهراء والمطامير المختومة؟ فقال له: إنما بقي عولة اليوم وغد فاستوصاه بكتمانها"(الناصري، 1954، ص 86-87)، فرغم ما أصاب هذه الفئة من حيف غير أن الفئة الأكثر تضررا هي فئة العامة خاصة الفقراء والمساكين منهم، وما لا يدعو مجالا للشك أن ظروف هذه الفئة في الأيام العادية كانت تستدعي تكافل وتآزر المجتمع للتفريج عنها غير أن هذه الأزمة جعلت كل يفكر في نفسه وعياله ولم تدع للتكافل سبيل، فلا مراء من القول أنه في زخم هذه الأزمات كان الموت يتربص بالساكنة تربص الأسد بفريسته فمن لم يقتله السيف قتله الجوع، لذا فلا يساورنا أدنى شك في أن ما عانته لا يمكن للبشر تحمله ودليل ذلك انتهاجها من أجل البقاء لسلوكات كانت خير معبر عن مدى تأثير تلك الأزمات على نفسيتهم خاصة أزمة الجوع وهي الأشد والأعظم فليس هناك كارثة تحطم شخصية الإنسان وتدمرها كما يفعل الجوع(لبياض، د س ن، ص 190).

ويجرنا الغوص في هذا الموضوع للحديث عن فئة الأطفال خاصة الفقراء والمساكين منهم، الذين تصبح أمورهم أكثر تعقيدا وأشد صعوبة حين لا يجد آبائهم ما يسكتون به بطونهم ويسدون به جوعهم خاصة زمن الحروب والحصارات، فمثل هذه الحالات الاضطرارية أفضت بالساكنة إلى استحداث سلوكات غذائية شاذة وهجينة لم يألفوها من قبل تغير بموجبها نظامهم الغذائي حيث غاب عنها نمط إرضاء الذوق وحل محله سد رمق الجوع، وبطبيعة الحال فهذه السلوكات لم تكن وليدة اللحظة بل كانت نتيجة تفاقم الأزمات حيث بلغ الجوع مبلغه بالسكان مما دفعهم لتبني سلوكات غذائية جديدة مبدأها الجود من الموجود، خاصة زمن الحصار الطويل حيث عرف السكان كارثة إنسانية بكل ما للكلمة من معنى تحطمت فيها كل معاني الإنسانية، وألم بهم ما لم يقع بأمم من قبلهم وضاقت بهم الأرض بما رحبت و"استهلك الناس أموالهم وموجودهم"(ابن خلدون، 2000، ص129). وقد وقفت عدة النوازل خير دليل وشاهد على التدرج الذي تبنته الساكنة في نمطها الغذائي، حيث لم تتوانى الساكنة عن أكل أي شيء لم تعهده من قبل وكانت بدايتها مع أكلات التي لم تنضج بعد ثم أكل اليابس من بقايا الطعام خاصة الخبز، ثم أكل المتعفن منه ومن به نجاسة(الونشريسي، 1981، ص 164)، ثم أكل كل ما يصادفهم من نباتات وحشائش(بخليلي، 2015-2016، ص 222).

أما أكل اللحوم فبعد استنفاذ كل ما أحل الله أكله من لحوم الحيوانات و بعد أن ضاقت بهم كل السبل وأُغلقت في وجوههم كل الأبواب لجأ السكان لأكل ما حرمه الله في قوله عز وجل :"حرمت عليكم الميتة والدم لحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب "(القرآن، سورة المائدة الآية 107)، وهو ما أحله الله في نفس الوقت للمضطر كحل للنجاة بالنفس من الهلاك امتثالا لقوله عز وجل"ومالكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه "(القرآن، سورة الأنعام الآية 143)، أي أصبحت كل المخلوقات الحيوانية والنباتية مصدرا لطعامهم بل وأصبحوا يتهافتون لاصطيادها وأكلها ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أضحت لحوم هذه الحيوانات من المنتجات التي يتم تداولها في الأسواق تباع بالمكيال وبأثمان معينة وصلت حد الغلاء في أسعارها مثل القطط و الكلاب و الفئران وغيرها من الحيوانات حتى أن البعض لجأ لأكل حتى السامة منها غير آبهين لما سيحل بهم واضعين بذلك حدا لحياتهم، وعندما بلغ بهم الجوع مبلغه عمدوا في نهاية المطاف إلى تجفيف غائطهم ليعيدوا أكله مرة أخرى وأصبحوا حتى يتاجرون به(لبياض، د س ن، ص 190)، وهذا ما تؤكده المصادر التاريخية حيث :"أكلوا الجيف والحشرات وجميع الحيوانات من الفئران والعقارب والحيات والضفادع وغير ذلك، حتى أكل بعضهم بعضا، وكانوا يفرطون ويجعلون غائطهم في الشمس حتى يعود يابسا فيطبخونه ويأكلونه ".(ابن الأحمر أ.، 2001، ص 69)

ولما بلغ السيل الزبى خرجت الساكنة عن حدود الإنسانية و انتهجت سلوكا عدوانيا وقائيا ذو أصول حيوانية يتنافى والقيم الإنسانية فرضه الخوف من الموت وغريزة حب الذات والرغبة في النجاة بالنفس، تمثل في أكلهم لحوم الموتى من البشر حيث أصبح المحصورين يترقبون بأعينهم كالذئاب من يموت فينهلون لأكل أشلائه(ابن الأحمر أ.، 2001، ص 69)، غير أن هذا السلوك الهجين في مجمله لا يغدوا سوى حل أخير من الحلول التي تلجأ إليها النفوس البشرية ضمن صراعها للبقاء على قيد الحياة، ولاشك أن مثل هذا السلوك لم يتولد إلا بعد أن تجرد الإنسان من إنسانيته، فالمعروف عن الجوع أنه يذهب العقول وفي حالة الجوع الإنسان لا يفكر سوى في سد رمقه حيث يصبح همه في بطنه، لذا لا نستبعد من الساكنة انتهاج هذه السلوكات الهجينة والتي بها ضمنت البقاء على قيد الحياة، وهذا الفعل بطبيعة الحال ينطبق على الكبار سواء كانوا رجالا أ ونساء ونحن نجزم أيضا أنه في الغالب يلجأ الآباء لمثل هذه السلوكات ويكون دافعهم لذلك فلذة أكبادهم قبل أنفسهم فمن البديهي ألا يستطيع الآباء رؤية أبنائهم يموتون أمام أعينهم ويقفون مكتوفي الأيدي.

نحن وإن تحدثنا عما تكبده الكبار من مآسي فالصغار لم يكونوا بمنأى عما يجري حولهم وهم الفئة الأكثر تضررا في تلك الظروف، بسبب الطبيعة الفيزيولوجية للطفل كونه الأضعف بنية والأقل مناعة من غيره، وحسبنا في هذا ما جاء على لسان الولي أحمد الماوسي الذي قال" يارب أنا أرضى بفعلك

مستطيع لما قدرت به وأردته بفضلك وجودك، وهؤلاء الأطفال لا يطيقون ذلك فقد مسهم الضرر وأنت أرحم الراحمين"(مزدور، 2008-2009، ص 152)، ونستشف من هذا القول نبرة الحسرة وخوف الآباء على أبنائهم، لاسيما أنهم في فترة الرخاء يؤثرون ملأ بطون أطفالهم على أنفسهم فما بالك زمن المسغبة، حيث لا يطيق الآباء رؤية أبنائهم يموتون جوعا أمام أعينهم، خاصة أطفال الفقراء الذين تظهر على وجوههم صفرة من شدة الفقر(التادلي، د س ن، ص 173)وهذا دليل على سوء التغذية، كما أن طبيعة الطفل تدفعه في الغالب للجوء إلى البكاء عند الجوع ولا يتوقفون عن ذلك حتى يأكلوا.

ومن هذا المنطلق لا نستبعد أن يقدم الآباء لأولادهم أي شيء ليسدوا به جوعهم لكي لا يكونوا عرضة للموت، ومن منطلق أن الأطفال لا يميزون بين الأكلات سواء المطبوخة بالجيفة أو الميتة وأن نفسيتهم لا تفروا منها لكونهم لا يفقهون في الأمر شيئا سوى الأكل وفقط، لذا فلا بأس من القول بأن الأطفال أكلوا مما أكله آبائهم زمن المسغبة والحصارات، كما لا نستبعد أن يقوم الآباء بأي فعل من أجل ضمان بقاء أبنائهم على قيد الحياة وربما هذا ما يعكس التغيرات التي طرأت على مستوى سلوكات وذهنيات السكان لتوفير الغذاء، وكل ما سبق ذكره لم يكن سوى صورة حقيقية تترجم ما عايشته الساكنة ومن بينهم الأطفال من مآسي وآلام تكبدتها تحت وطأة الجوع، وكل ما سبق ذكرها من سلوكات هجينة لا تغدوا سوى سلوكات وليدة الأزمة لجأت إليها الساكنة كرد فعل إجرائي وقائي للقضاء على الجوع و اتقاء للهلاك وضمان البقاء على قيد الحياة لا غير.

### 3. الطفل ما بين الهجرة أو الفرار من الموت:

أضحت أزمنة الحروب والحصار المسببات الكبرى للاستنزاف الديموغرافي ليس بسبب الموت فحسب بل لأن لها باع طويل في التهجير القصري وكذا حالات الهجرة والفرار التي وجد السكان أنفسهم مجبرين عليها، حيث لم يجدوا بُدًا من الفرار إلى أماكن بعيدة لا يصل صدى الحروب إليها وغالبا ما كانت الجبال هي الملجأ الأول، والأمثلة كثيرة لما حدث مع ساكنة المغرب الأوسط خاصة في عهد الدولة الزيانية وصراعاتها مع المرينيين، حيث تروي مصادر كثيرة عواقب هذا الصراع حيث"ألم بالرعية الحيف، وتقسمهم الجلاء والسيف،واعتصم من نجا منهم بقنن الجبال والأوعار...فتسلل من القبائل خيلا ورجلا معظم سوادهم، وتسربوا مع الأيام فرارا من الإعدام الى أقطارهم وبلادهم "(ابن عذارى، 1985، ص 181)، ونفس السلوك أفرزه الحصار الطويل حيث لاذ الكثيرون بالفرار نحو الجبال والأماكن البعيدة(Abbé , 1895, p. 193)، وغالبا ما كانت الساكنة تلجأ لهذا السلوك كنتيجة حتمية للنجاة مما قد يصاحب الحروب والحصارات من بطش للعدو وهلع كبير، وتجنبا لما تفرزه هذه الأفعال من مظاهر الخوف والرعب في نفوس الكبار فما بالك بالصغار، فمثل هذه المشاهد تتكرر على أعين الأطفال.

وإن كان لظاهرة الهجرة أو الفرار عميق الأثر لدى عامة الناس فهذه مسألة لا يرقى إليها الشك، لذا فلا نستبعد أن تكون حالات الفرار أو الهجرة وحتى التهجير العمدي قد مسها بشكل كبير وهي أكثر الفئات تضررا لأن محيطها كان يمثل ساحة للحروب، فلا شك أن هناك بيوت قد هدمت وأرزاق قطعت وهذا ما يستوجب الفرار بالنفس والأولاد لأماكن آمنة، ومثل هذه الحالات لا بد أن تكون كثيرة غير أن المصادر التاريخية في غالبها تركز على الطبقة الحاكمة وهذا لا ينفي وجود عينات تثبت ذلك كما جاء على لسان القس بارجس أثناء زيارته لمدينة تلمسان"أن سكانها انخفض كثيرا أثناء الحصار ... والبعض لاذ بالفرار نحو الجبال والأماكن البعيدة(Abbé , 1895, p. 193)، وهذا ما يؤكده ابن عذارى بقوله:"واعتصم من نجا منهم بقنن الجبال والأوعار..."(ابن عذارى، 1985، ص 181)، كل هذا يجعلنا نجزم بأن السكان خاصة في عهد الزيانيين عاشوا بنفسية محطمة لا يأمنون لا على أنفسهم ولا على أولادهم ولا نستبعد أن كل هذا أثر سلبا على ذهنياتهم وسلوكهم مما نأى ببعضهم لسلوك مسالك الغرض منها الهروب من القدر المحتوم وعدم الاستسلام وذلك باللجوء للفرار.

كما تؤكد المتون التاريخية أن هذه ظاهرة الفرار لم تقتصر على فئة العامة فحسب بل مست حتى الأسر الحاكمة هي الأخرى وبدرجة كبيرة، لأنها في الغالب تستخدم كإجراء وقائي غايته تجنيب العائلات الحاكمة معرة الخزي والعار واتقاء لحرماتهم سواء نسائهم أو أولادهم لما قد يصيبهم من طرف عدوهم في حال الانهزام أو الموت، غير أن هذه الظاهرة بدورها أحدثت ارتباكا كبيرا في أوساط علية المجتمع وتسببت في تشريدهم نحو وجهات متعددة ومجهولة، لكن في كثير من الأحيان كانت فيافي الصحراء أكثر الأماكن استقطابا لهذه الفئة إضافة إلى الجبال والقلاع، وقد جادت مصادر عديدة بمشاهد لحالات فرار شهدتها هذه الفئة خاصة في عهد الدولة الزيانية، لأن هذا السلوك كان دأب السلاطين يلجئون إليه عندما تلوح لهم نسائم الانهزام في الأفق، والأمثلة كثيرة نذكر منها ما فعله السلطان يغمراسن بعد هجوم الحفصيين على تلمسان سنة640هـ/1242م حسب رواية ابن خلدون حيث قال:" ورأى يغمراسن أن قد أحيط بالبلد فقصد باب العقبة من أبواب تلمسان ملتفا على ذويه وخاصته...ولحق بالصحراء"، وفي موقف آخر يقول:" ونجا يغمراسن بن زيان بنو عبد الواد بأهاليهم وأولادهم إلى قلعة تامز ردكت قبلة وجدة فاعتصموا بها"(ابن خلدون، 2000، ص 108)أما في واقعة أخرى فيقول:"فر يغمراسن جريحا في شرذمة قليلة من عشيرته وقرابته"(ابن أبي شنب، 1920، ص 149)، نستشف مما سبق أن فئة الضعفاء من النساء والأطفال كانت أكثر فئات المجتمع تعرضا لهذه الظاهرة لكونهما أضعف حلقة في المجتمع وربما يشكلون نقطة ضعف للأسرة والمجتمع والدولة برمتها، وأقرب مثال على ذلك ما حدث في هجوم محمد بن القوي على وادي رهيو" حيث فر الناس باكين خائفين على أنفسهم ونسائهم وأولادهم".(ابن خلدون، 2000، ص 110)

ورغم أن هذا الإجراء هو في الواقع لصالح الأطفال بشكل خاص ولكون الطفل لا يمكنه استيعاب كل ما يحيط به من ظروف، فنحن نجزم بأن هذا السلوك قد يكون أثر سلبا على نفسيته وأصابه بالحزن، لكونه قد هجر بيئته ومحيطه الذي تعود عليه وأهله وأقاربه وأصدقائه ومكان لعبه والمكان الذي كان يتعلم فيه، وهذا ما من شأنه أن يخلق فراغا عاطفيا لا يندمل إلا مع مرور الوقت.

**4. الأطفال ما بين ضحايا القتل والسبي أواليتم:**

على الرغم من أن الحروب تحصد أرواح الرجال بالدرجة الأولى بسبب كثرة تعرضهم للقتل في ساحات المعارك، إلا أن الأطفال لم يكونوا بمنأى عنها رغم أن ديننا الحنيف نهى عن قتل المستضعفين في نصوص كثيرة منها قول الله عزوجل:" وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا"(القرآن، سورة البقرة الآية 89)كما ورد عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال:" اتقوا الله في الذرية والفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب"(ابن العربي، د س ن، ص 149-150)، غير أنهم كانوا من ضمن ضحايا الحروب وتعرضوا للقتل شأنهم شأن الكبار، وهذا ما أكدته نصوص إخبارية كثيرة خاصة في الحروب التي خاضتها االدولة لزيانية ضد المرنيين والحفصيين، حيث لم يترفعوا عن أذية الأطفال خاصة والمستضعفين بصفة عامة، لاسيما بعد توالي الهزائم على الدولة الزيانية تارة على يد الحفصيين حين هجموا على تلمسان" وانسلت الجيوش إلى البلد من كل حدب ، فاقتحموا وعاثوا فيه بقتل النساء والصبيان واكتساح الأموال"(ابن خلدون، 2000، ص 108)، وتارة أخرى على يد المرنيين وما أكثرها وفيها "انتهبت مرين جميع محلته وأمواله ومضاربه وعياله".(ابن أبي زرع، 1972، ص 305، 310)

كما يروي يحي ابن خلدون أن السلطان أبو تاشفين انحاز هو وأولاده ووزيره إلى باب القصر يقاتلون دون الأولاد والأموال حتى قتلوا جميعا(أبي زكريا يحي، 1903، ص 141)، وهذه إشارات صريحة على قتل الأطفال، في حين زودنا يحي ابن خلدون بنموذج حي للمصير المحتوم التي كان ينتظر أطفال العائلات الخاصة سواء بالقتل أوالسبي حيث يروي ما حصل جراء الحملات التي قادها الوزير موسى بن علي بن برغوث بمليانة لتأديب المنافقين عن بلد المدية بقوله :"فأقبل عليهم غير هائب ولا متوان فتضاربوا الحرب، وضرب الوزير بمن كان معه في البلاد من الجند عوض المخافين فأفرجوا وتركوا المال والأولاد"(أبي زكريا يحي، 1903، ص 377).

أما حالات القتل العامة فلا نستبعد أن يكون الأطفال من ضمن ضحاياها نذكر منها أنهم "هزموا يغمراسن هزيمة شنعا، وقتلوا حماته ...وقتل فيها من بني عبد الواد جماعة من خيارهم وأنجادهم "(ابن الأحمر، 1962، ص 48)، كما ورد عن ابن مرزوق في حديثه عن نفس الواقعة قوله:"تحدث الناس في جميع الأقطار بكثرة القتلى في هذه الهزيمة"(ابن مرزوق، 1981، صفحة 113)، أما من نجا من القتل في

الحروب فكان مصيرهم السبي خاصة النساء مع الأطفال، وهذا ما ذكره ابن عذارى في حديثه عن موضع آخر" واستولى أبو الظفر ابن مردنيش على منازلهم وحريمهم وحواشيهم ومواشيهم وسباها وانصرف"(ابن عذارى، 1985، صفحة 181)، ولنا أن نتخيل مصير هؤلاء الأطفال كيف كان.

غير أنه من الأهمية بمكان التذكير بأن النصوص التاريخية الوسيطية يعاب عليها تفضيلها للعبارات الوصفية في حديثها عن ضحايا الحروب والحصارات على غرار قول"مات فيها خلق كثير" أو"قتل خلقا من أهلها"(ابن أبي شنب، 1920، ص 149)(ابن خلدون، 2000، ص 249، 230)(ابن أبي زرع، 1972، ص 310-311)، أما لغة الأرقام فقد كانت محتشمة جاءت في ثناياها على شكل نتف ضئيلة منها أن تلمسان أصبحت خالية من سكانها الذين كان عددهم 125 ألف نسمة، كما جاء في إشارة القس بارجس أثناء زيارته لمدينة تلمسان أن سكانها انخفض كثيرا أثناء الحصار حيث قدر عددهم 200شخص وما يقارب1000من الجند، والبقية كان مصيرهم إما الموت جوعا أو بالقذائف النارية التي كانت يطلقها منجنيق المرنيين(Abbé , 1895, p. 193)، كما جاء في الذخيرة ذكر عدد قتلى إحدى المعارك التي مني فيها الزيانيون بالهزيمة "فرأى يغمراسن ما لا طاقة له به ...ففر منهزما جريحا وقتل ولده فارس وجميع من كان في عسكره من الروم فلم يفلت منهم أحد وكانوا ما يزيد على خمسمائة فارس فاستوصلوا عن آخرهم وقتل من بني عبد الوادي وبني راشد ومغراوة والعرب خلق كثير".(ابن أبي شنب، 1920، ص 149)

وما يسترعي الانتباه أن الكارثة الحقيقية للضحايا تكفل بها الحصار الطويل الذي ذاع صيته من شدة وهول ما لحق بالساكنة من جرائه حيث"ضيق بتلمسان تضييقا لم ير مثله"، وهذا ما جعل بعض المصادر تورد أرقاما تتعلق بعدد ضحايا هذه الكارثة اللاإنسانية وعدد الناجين من هذه التجربة المرة حيث أورد التنسي أنه:"لم يبقى فيها من الرعية إلا نحو المائتين، وكان فيها من المقاتلة نحو الألف"(التنسي، 2011، ص 130، 132)، كما ذكر كل من يحي بن خلدون وابن الأحمر أ ن موتى أهل تلمسان قتلا وجوعا بلغ زهاء مئة ألف وعشرين ألف.(أبي زكريا يحي، 1903، ص 121، 125)(ابن الأحمر أ.، 2001، ص 70)

كل هذه القرائن تقف دليلا قاطعا من أجل إثبات بشاعة ما حل بالساكنة وإن كانت المتون التاريخية لم تعطي تفصيلا عن ضحايا هذه الكارثة، غير أنه نبادر إلى التأكيد ولحد بعيد أن الأطفال كانوا من ضمن ضحاياها وبأعداد كبيرة لكونهم الأضعف بنية وقليلي المناعة فلا طاقة لهم على تحمل مناظر الدم فعلى الأكيد أن هناك من الأطفال من شهد مقتل أحد والديه أو كلاهما أو أحد أفراد أسرته هذا إن لم يخسر أسرته بالكامل أو أحد أصدقائه أو أقربائه، لتزداد معدلات اليتم والتشرد في المغرب الأوسط بوتيرة غير طبيعية وتزداد معه معاناة الأطفال لا محالة في ظل غياب المعيل والحضن الدافئ والظرفية

العصيبة التي يمكن أن يعايشها في خضم هذه الظروف(بوقاعدة، 2020، ص 26-35)، وهذا ما من شأنه أن يدخله في دوامة من الحزن ويؤثر سلبا على نفسيته وسلوكه في المستقبل.

### 5. الطفل والصدمات النفسية:

الحقيقة التي يجب أن تقال أن الأحداث الدموية كالحروب والحصارات مثلت أفظع كارثة إنسانية بكل ما للكلمة من معنى غير أن بشاعتها تزداد عندما تطال بأيديها الأطفال الأبرياء، فبالإضافة إلى الخسائر البشرية والمادية فإنها تخلق في النفوس البشرية هالة من التوتر والخوف الدائم من الموت أوحتى فقدان أحد أفراد الأسرة، والآثار النفسية التي تخلفها قد تكون كارثية فغالبا ما تتسبب في حدوث اضطرابات نفسية لدى الأشخاص الذين عاشوها وذاقوا طعم مرارتها، وفي حديثنا عن الأطفال فلا شك أن الطفل في سن مبكرة هو بحاجة ماسة للإحساس بالأمان الذي يعتبر ضروري وأساسي لنموه النفسي والمعرفي كضرورة الماء والغذاء، غير أنه في خضم الحروب تبقى معاناة الأطفال مستمرة أثناء وبعد تعرضهم للحرب فالمتعارف عليه أن نتائجها غير آنية وقد تمتد لردح من الزمن، وإن حصرنا تداعياتها لدى الأطفال فيمكننا الجزم بأنها لم تكن سوى بمثابة بوابة ملغمة لتشتيت مستقبل الأطفال وتدمير صحتهم خاصة النفسية(جورية، 2011، ص 31-32)، لكونها تتسبب في تغيير جذري لحياتهم من كثرة وقوفهم على مشاهد الموت والدماء ومعايشتهم لأجواء الرعب والعنف وانتهاك الأنفس والمساكن، كل هذا من شأنه أن يخلق في نفس الطفل صدمة تفوق درجة استيعابه تكسبه الشعور بعدم بالأمان والقلق الشديد والمستمر ناهيك عن الإحساس الدائم بالخوف والخطر.

وفي ظل افتقارنا إلى نصوص خبرية أو مصدرية تحيلنا للكشف عن الحالة النفسية للأطفال زمن الحروب والحصارات وما تمخض عنهما من آلام وأضرار معنوية، لذا لم نجد بدا من لم شمل الشتات المتناثر بين ثناياها والذي من شأنه أن يرسم لنا صورة يمكن أن نستشف من خلالها ما عايشه الطفل في المغرب الأوسط آنذاك، فالأمر الذي لا يختلف فيه اثنان أن الفئتان الأكثر تضررا في خضم تلك الظروف هما النساء والأطفال وذلك لخصوصيتهما، ففي كل الحروب تستباح الحرمات وتتجاوز الأطراف المتصارعة كل الخطوط الحمراء، وترتكب جرائم وما إلى ذلك ما يشيب له الولدان وتقشعر منه الأبدان.

غير أن انفصال الطفل عن والديه في تلك الظروف يعتبر أقوى صدمة قد يتعرض لها ويمكن أن تكون أكثر إيلامًا من الحرب نفسها لكونهما مصدرا قوته وأمانه(جورية، 2011، ص 34، 36)، والجدير بالذكر أن التلازم المستمر للحروب والحصارات وما أعقبهما من مجاعات وغلاء في المعيشة سار في منحى تصاعدي فهناك إشارات عديدة تحيلنا في غير ما عناء إلى ما كابدته الساكنة فيها من مشقة ومحن، زادت معها هواجس ومخاوف الآباء الذين غالبا ما يجدون أنفسهم قد فقدوا مورد الرزق الذي كان يؤمنون به

قوت عيالهم، ناهيك عن إحساسهم الدائم بالهلع والخوف من الموت جوعا أو بالسيف وحتى التهجير القصري(كريتين، 1991، ص 68)، والأمثلة كثيرة عن ذلك كما أشرنا سابقا وقد نوه ابن خلدون لوقع الحروب على نفسية الإنسان فما بالك بالطفل بقوله :"إذ تكسر من سورة البأس وتذهب عنه المنعة لما يكون من التكاسل في النفوس المضطهدة".(ابن خلدون ع.، 2004، ص 148)

وقد أوردت مصادر تاريخية عديدة وصف للحالة النفسية للساكنة وقت الأزمات منها :" وأخذ الرعب بقلوب الأمم بالنواحي"(ابن خلدون ع.، 2000، ص 230)و"فر الناس باكين خائفين على أنفسهم ونسائهم وأولادهم" وكذا قولهم "طار الذعر بين يدي الضلالة"(حسيبة، 2017-2018، ص 122)، وفي موقف آخر "ففزع الناس ولجئوا إلى سلطانهم متعلقين بأذياله خوفا من معرة العدو"(الزركشي، د س ن، ص 153)(ابن خلدون ع.، 2000، ص 198)(ابن الوزان، 1983، ص 14-15)، وما زاد الطين بلة كثرة الحصار المصاحبة للحروب حيث فاضت الأقلام في الحديث عن الظرفية العصيبة التي عاشها المحصورين آنذاك حيث كانوا في حلبة صراع دائم مع الجوع والموت من أجل البقاء، وقد اختصر ابن خلدون الحالة النفسية للمحصورين بقوله:"وانتهت قلوب المحصورين إلى الحناجر"(أبي زكريا يحي، 1903، ص 122-123)، أما صاحب مسالك الأبصار فوصف الحالة النفسية لعلية القوم والعامة بقوله :"وسلطانها وجميع أهلها في ضيق الخناق معهم لا يفك لهم وثاق، ولا يحل لهم خناق، ولا تبرق لديهم بارق خلاص"(العمري، 2010، ص 104) وهذا ما يؤكده عالم النفس باركلاي مارتن بقوله :"الخوف يقود إلى القلق وهناك فرق بين الخوف وهو ماله سبب أو مثير،والقلق الذي هو حالة داخلية قد لا يعرف له سبب... المعارك أو الحروب قد يصاحبها عند بعض الأفراد حالة من الفزع أو الخوف الشديد والهلع...".(كريتين، 1991، ص 121)

كل ما سبق ذكره لا يمثل سوى ترجمة لما اعترى نفوس الأهالي من قلق وهلع وخوف دائمين، فالطفل هنا يجد نفسه يعيش في وسط أسرة غير قادرة على تقديم الدعم النفسي له لأنه حينها يكون الرعب والخوف قد أفنيا على ما تبقى من قوتهما وأعصابهما، ونحن على وعي تام بأن الأسرة هي المصدر الرئيسي الذي يستقي منه الطفل قوته وقدرته على احتمال أي شيء ففي الظروف الطبيعية يكون الطفل يلعب ويلهو بجانبهما وإذا رأى خطر محدقا به فإنه يهرول إليهما ويرتمي في حضنهما(كريتين، 1991، ص 68، 25)،فما بالك زمن الأزمات حيث يصبح الأمر أكثر سوءا وإيلاما خاصة إذا كان يعي ما يحدث حوله، فتأثره بما يجري حوله من مظاهر العنف لا يكون بنفس درجة تأثره إن مورس على أحد أفراد عائلته خاصة والديه فهنا يصبح الموقف أكثر تعقيدا، سواء أكان الأب من قتلى الحرب أو من معطوبي الحرب أو الأسرى ويزداد الأمر عنده سوء إذا فقد مصدر الحنان الأول بتعرض أمه للقتل أوالسبي، ففي الغالب المرأة هي من تتحمل عبأ وهم أولادها هذا في وقت الرخاء فما بالك وقت الشدة أين تقع المسؤولية على عاتقها لكون الرجل إما يكون وسط المعارك أو في عداد الموتى أو أسيرا وقد لا يعرف مصيره أهو من الأحياء

أو لأموات، وفي ظل هذه الظروف فالطفل يكون معرض لخسارة والديه أو أحدهما يفقد معهما الدعم العاطفي الأسري ويصبح عرضة للتشرد والاكتئاب.

زد على ذلك فعلى الرغم من أن الأطفال لم يكونوا مستهدفين في مشاريع الحرب غير أنهم لم يكونوا بمنأى عن تداعياتها من قتل وسبي أو أسر و نفي(ابن خلدون ع.، 2000، ص 108)، ولعل ما يمكن الجزم به في ظل غياب القرائن أن يكون من بين هذه الفئة من تعرضوا للإعاقة أو فقدان أحد أعضاء الجسم أو الحواس(جورية، 2011، ص 31-32)، وهذا ما يمكن أن يترك في نفسية الطفل ثغرات لا تندمل حتى بعد انتهاء الحرب لأن آثارها تبقى مصاحبة له مدى حياته، وبحكم أنهم أكثر المخلوقات رقة وضعفا والأقل نضجا عقليا فهم يعجزون عن استيعاب كل ما يجري حولهم من مشاهد القتل والتنكيل والتمثيل بالجثث التي كانت تتكرر مشاهدها عليه والتي كان المنتصر يتفاخر ويتنافس لفعلها والقصد منها في الغالب إرهاب النفوس(ابن خلدون ع.، 2000، ص 294)، فمن وجهة نظر ابن خلدون أن ممارسة العنف والتنكيل ضد الطفل الغير قادر على صد ورد ذلك هو بمثابة غرس لبذور الانكسار والضعف المذلة في شخصيته بقوله:"الأحكام بالعقاب مذهبة للبأس بالكلية لأن وقوع العقاب به ولم يدافع بنفسه يكسب المذلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك"(حسيبة، 2017-2018، ص 137)، وهذا ما يؤكده علماء النفس"أن هذا الاضطراب المؤلم يؤدي إلى عجز تمتد آثاره إلى أسابيع أو أشهر أو سنوات، مما يجعله صعب المعالجة، إذ ينجم هذا الاضطراب عندما يتعرض الفرد للتهديد بالموت أو لأذى جسدي شديد قد يؤدي إلى الإعاقة، أو عندما يتعرض شخص ما لحدث مؤلم --صدمة- يتخطى حدود التجربة المألوفة( أهوال الحروب، رؤية أعمال العنف والقتل، كارثة طبيعية، الاعتداء على أحد أفراد العائلة...).(جورية، 2011، ص 32)

كما أدت مظاهر العنف المرافقة لكل حرب وما أحدثته من اضطرابات نفسية وضعف في الشخصية إلى ظهور أمراض استهدفت فئة الأطفال كالأعصاب وهذا حسب ما أورده حسن الوزان :"كثيرا ما يشاهد مرض الأعصاب عند الأطفال، لكنهم يشفون منه كلما تقدمت سنهم"(ابن الوزان، 1983، ص 85)، وفي هذا الصدد فقد وُفِقَتْ كتب النوازل لحد بعيد في إعطاءنا تصورات عن الحالة النفسية للساكنة في خضم الحروب والحصارات، تضمنت عينات تخص الرجال والنساء فلا جرم أن تكون فئة الأطفال مستهدفة كذلك، منها نازلة أشارات إلى أن البعض ذهبت عقولهم من شدة الجوع حتى فقد الناس أعصابهم والقدرة على التحكم في تصرفاتهم مما نتج عن ذلك سلوكات غير طبيعية(الونشريسي، 1981، ص 290-291)(مزدور، 2008-2009، ص 223)، كما كانت تظهر على وجوه الأطفال الفقراء صفرة من شدة الفقر.(ابن الوزان، 1983، ص 85)

نستشف من خلال ما تم عرضه أن الحروب هي بالحق جرائم في حق الإنسانية جمعاء خاصة الأطفال، وأقل ما يقال عنها أنها ستفرز شريحة من الأطفال تعاني من الأمراض النفسية بسبب كثرة تعرضهم

للصدمات في طفولتهم، ترافقهم نتائجها المأساوية طيلة حياتهم ليصبحوا أشخاص متوترين ميالون للقلق والاكتئاب وهذا قد يؤثر سلبا على تحصيلهم الدراسي وفي بناء شخصيتهم المستقبلية.

## 6. خاتمة:

كل ما سبق ذكره جعلنا ندرك دونما عناء أن الأطفال مثلوا الحلقة الأضعف في هذا الصراع وأن الأحداث والمشاهد والوقائع التي تفرزها الحروب والحصارات من شأنها أن تصيب الطفل بالترح الدائم ولا نستبعد أن الطفل في مثل هذه الظروف لم تغادر الدموع مقلتيه، وأهم النتائج التي خلصنا إليها هي أن:

مظاهر العنف المصاحبة لهذه الظروف والتي وقف الطفل على مشاهدها أحدثت تأثيرات سلبية على نفسية الطفل وجعلته يشعر بالحزن والقلق والخوف باستمرار.

تعرض الطفل لصدمات نفسية نتيجة تعرضه للخطر مفاجئ و رؤيته المتكررة لمشاهد العنف والقتل والدماء المتناثرة والتي تزداد سوءا لو مورست هذه الأفعال على أفراد عائلته أو لأطفال مثله.

تأثر الطفل نفسياً وجسدياً يكون أكبر عندما يكون بمقربة من ساحات الحرب، تزداد معه نسبة تعرضه للإصابة بالأمراض والإعاقات والخوف وحتى الموت الذي سيصيبه أو يصيب أفراد عائلته، ومن هذا المنطلق فإن الطفل لا محالة سيكون ضحية من ضحايا الحروب ِمابين يتيم و مشرد أو معاق و محروم هذا إن سلم من الموت المحتم.

الطفل في ظل هذه الأزمات هو دائم التهديد بفقدان مصادر الدعم العاطفي المتمثلة في أسرته التي تمثل مصدر الأمان خاصة منبع حنانه الأول وهو أمه أو أسرته ،بالإضافة إلى محيطه بسبب حالات الفرار أو الهجرة التي أجبر عليها ليجد نفسه قد خسر كل ما له صلة ببيئته المحيطة وحتى ترك مقاعد المدرسة.

الخوض في المواضيع المتعلقة بالطفل لم تأخذ حظها من الدراسات، لذا ندعوا الباحثين في إطار التوجهات الجديدة التي عرفتها الكتابة التاريخية للاهتمام أكثر بهذه الفئة خاصة في الفترة الوسيطية بالاستعانة بالكتب الفقهية خاصة النوازل التي أثبتت جدارتها كوثيقة تاريخية قيمة ومهمة في كتابة التاريخ الاجتماعي خاصة تاريخ الفئات المهمشة.

## المراجع:

1) القرآن الكريم.

2) ابن أبي زرع الفاسي. (1972). *الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس*. الرباط: صور للطباعة والوراقة.

3) ابن أبي شنب محمد. (1920). *الذخيرة السنية في تأريخ الدولة المرينية*. الجزائر: مطبعة جول كربونل.

4) ابن الأحمرأبي الوليد اسماعيل. (2001). *تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان* (الإصدار 1). بورسعيد، مصر: مكتبة الثقافة الدينية.

5) ابن الأحمر اسماعيل بن الوليد. (1962). *روضة النسرين في دولة بني مرين*. المطبعة الملكية، المملكة المغربية.

6) ابن العربي.أبي بكر محمد بن عبدالله ا (د س ن). *أحكام القرآن*. بيروت: دار الكتب العلمية.

7) ابن الوزان.الحسن بن محمد الفاسي ا (1983). *وصف افريقيا ج2* (الإصدار 2، المجلد 2). بيروت: دار الغرب الإسلامي.

8) ابن خلدون.عبد الرحمان (2000). *تاريخ ابن خلدون المسمى: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر* (المجلد 7). بيروت: دار الفكر.

9) ابن خلدون.عبدالرحمان (2004). *مقدمة ابن خلدون* (الإصدار 1). دمشق: دار يعرب.

10) ابن مرزوق.محمد التلمساني (1981). *المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن*. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

11) أبي زكريا يحيابن خلدون. (1903). *بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد* (المجلد 1). الجزائر: مطبعة بريطانيا الشرقية.

12) بخليلي.بختة (2015-2016). الفقر بالمغرب الاسلامي ما بين القرنين السابع والتاسع هجري/13و15م واقعه وآثاره. معسكر،(مذكرة دكتوراه)، الجزائر: جامعة اسطمبولي مصطفى.

13) بوقاعدة.البشير (2020). الحرب والطفل في عهد الدولة الزيانية(633-962هـ/ 1235-1554م). *مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية،المجلد،11* ، العدد02، 2020.

14) التادلي ابن الزيات. (د س ن). *التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي*. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية.

15) التنسي محمد بن بن عبدالله. (2011). *تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان)*. الجزائر: موفم للنشر.

16) الزركشي أبي عبد الله محمد بن ابراهيم. (د س ن). *تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية*. تونس: المكتبة العتيقة.

17) صدوق وسام ، و بن طالب عصام. (2011-2012). الاغتيال السياسي في مغرب العصر الوسيط من خلال كتب الحوليات( شهادة الإجازة). المغرب: جامعة سيدي محمد بن عبدالله.
18) طلعت فواز جورية. (2011). *صدمة الحرب آثارها النفسية والتربوية في الأطفال* (الإصدار 1). بيروت، لبنان: دار النهضة العربية.
19) عباس رشيد ، و بالأعرج.عبدالرحمان (ديسمبر, 2018). النظام الغذائي زمن المجاعات. *4*، الصفحات 87-102.
20) عمروش حسيبة. (2017-2018). انعكاسات الحروب في السلوك والذهنية لمجتمع المغرب الأوسط في العهد الزياني(633-962هـ/1235-1555م)( رسالة دكتوراه). المسيلة، الجزائر: جامعة محمد بوضياف.
21) العمري شهاب الدين بن فضل. (2010). *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار* (الإصدار 1، المجلد 4). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
22) فيلالي عبد العزيز. (24،23 أفريل, 2001). الأحوال الصحية لسكان تلمسان في عهد بني زيان(تأثير الأمراض والأوبئة والكوارث الطبيعية والأزمات السياسية على السكان( ملتقى). تلمسان.
23) بياض عبدالهادي. (د س ن). *الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الانسان في المغرب والأندلس(ق6-8هـ/ 12-14م)*. بيروت: دار الطليعة.
24) المراكشي ابن عذارى. (1985). *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب- قسم الموحدين-*. الدار البيضاء: دار الثقافة.
25) مزدور سمية. (2008-2009). المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط(588_927هـ/ 1192_1520م)(مذكرة ماجستير). قسنطينة، الجزائر: جامعة منتوري .
26) نصار كريتين. (1991). *واقع الحرب وانعكاساتها على الطفل* (الإصدار 1). طرابلس، لبنان: جروس برس.
27) الناصري.أحمد بن خالد (1954).*الاستقصا لدول المغرب الأقصى*، (المجلد 3). الدار البيضاء، دار الكتاب، المملكة المغربية.
28) الونشريسي.أبي العباس أحمد بن يحي (1981).*المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب* (المجلد 2). المملكة المغربية: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

29) Abbé , B. (1895). *Tlemcen ,ancienne capitale du royaume de ce nom* .Paris: Benjamin Duprat et Callame.